المعلم الجديد

تصدرها وزارة المعارف في الجمهورية العراقية

الجزءان الثالث والرابع تموز ـ كانون أول ١٩٦١ المجلد الرابع والعشرون

الكنوز الدفينة في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة

بقلم : الدكتور صفاء خلوصي

كتاب ولا كالكتب ، بل بوسعي أن أقول انه من الكتب القليلة النادرة التى تجمع بين المتعة والفائدة الى اقصى حدودهما ، مع نصاعة فى الديباجة وحلاوة فى اللغة وسلامة فى التعبير وسلاسة فى البيان ، فانت حين تقرأ الكتاب تشعر كأنك تطالع انسكلوبيديا أو دائرة معارف تزودك بمعلومات لغوية وادبية وتاريخية وفلسفية على صعيد واحد ضمن اطار نهج البلاغة للامام علي .

وليس هذا فحسب بل أن كثيرا من الكتب التى اصبحت فى عداد التراث العربى المفقود لا تزال عناوينها ومقتبسات منها محفوظة فيه ، وتستشف من وراء الكتاب كله عقلية نيّرة غير متعصبة وتحليلات منطقية والمعية فى التفكير وابتكاراً فى التعليل قل أن تجد له نظيراً فى الكتب الحديثة بله القديمة . وبوسع القارىء المطالع له أن يقتبس شيئاً جديداً من كل فصل

من فصوله ، ان لم أقل من كل صفحة من صفحاته فهو الكتاب القـــديم ـ الجديد دائماً وابداً ...

وتجد التاريخ الاسلامى من عهد الرسالة الى سنة ٦٢٣ هـ أى قبـل سقوط بغـداد على يـــد التتر بثلاثة عشر عاما [١] موزعاً فى ثنايا الـكتاب باجزائه الاربعة .

ومؤلف الكتاب [٢] هو عز الدين عبد الحميد بن ابى الحديد الشاعر الشيعى الاعتزالي المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م يذكر الدكتور جميل سلطان فى رسالته للدكتوراه « دراسة لنهج البـــلاغة » (ص ٨) سنى حياته على الوجه الآتى : ٥٨٦/١١٩٠ ـ ٦٥٥/١٢٥٧ أى سنة سقوط الدولة العباسية ببغداد وهو ناظم القصائد المعروفة بالسبع العلويات وهى تدور حول تمجيد الرسول الـكريم والاستيلاء عـلى خيبر وفتح مكة ومصرع الحسين ومرثية للخليفة الناصر لدين الله العباسى ولا تزال نسخة مخطوطة منها محفوظـة فى مكتبة لايدن بهولندة .

وأمتع فصل فى الـكتاب هو الفصل الخاص بالزحف التترى بقيـادة جنكيز خان على البلاد الاسلامية[٣] والامور التى يرويها هى مما عاصره

---

(١) راجع الجزء الثـــانى ص ٥٥٤ حيث اورد المؤلف آخر تاريخ لاعمال التاتار فى العراق على عهد المؤلف اذ قال « الى أن دخلت سنة ثلاث واربعين وستمائة فاتفق ان بعض امراء بغداد وهو سليمان بن برجم وهـــو مقدم الطائفة ، المعروف بالايواء ، وهى من التركمان قتل شحنة من شحنهم فى بعض قلاع الجبل » .

(٢) راجع كليمان هيوار ، « تاريخ الادب العربى » (لندن ١٩٠٣) ص ١٠٤ .

(٣) ج ٢ ص ٥٤٢ ـ ٥٥٦ .

فشهده بنفسه أو سمع به فى حياته بدليل قوله : « قد رأينا نحن عياناً ووقع فى زماننا وكان الناس ينتظرونه من اول الاسلام حتى ساقه القضاء والقدر الى عصرنا ، وهم التتار الذين خرجوا من أقاصي المشرق حتى وردت خيلهم العراق والشام وفعلوا بملوك الخطا وقفجاق وبلاد ما وراء النهر[1] وبخراسان وما والاها من بلاد العجم ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم الى عصرنا هذا على مثله » اهـ .

ويقارن المؤلف اعماله باعمال بابك الخرمى الذى دام امره عشرين عاما واقتصر شره على اقليم واحد هو اقليم آذربايجان فى حين ان نكاية هؤلاء امتدت فوق رقعة واسعة ويعقد مقارنة بينهم وبين اعمال بختنصر فيقول « وأى نسبة بين من كان بالبيت المقدس من بنى اسرائيل الى البلاد والامصار التى اخربها هؤلاء والى الناس الذين قتلوهم من المسلمين » .

ويعترف ابن ابى الحديد انه رغم اشتغاله بالتواريخ وباصناف الامم المختلفة فانه لم يجد أثراً للتاتار فى الكتب ثم يمضي الى ذكر الاصناف التسعة للترك ويدخل ضمنها « الروس » ، ويدعى ان المصدر الوحيد الذى اورد اسمهم هو « مروج الذهب » للمسعودى اذ ذكرهم بلفظ « التتر » ولو أن الناس فى ايام المؤلف أخذوا يلفظونها « التتار » بالالف .

ويأخذ بسرد ماجريات الحوادث بين خوارزم شاه والتتار وكيف انه اخطأ بابادة الملوك الذين كانوا يفصلون بينه وبين هذه القبائل الهمجية فكانوا ترساً له ومجناً ، وباعتقادى انه مخطىء فى هذا اذ أن الملوك الذين استطاع خوارزم شاه ابادتهم كانوا معرضين للابادة من لدن جنكيز خان

---

(١) يقصد بها تركستان فى الوقت الحاضر .

بصورة اسرع واسهل والنتيجة واحدة ان لم تكن اسوأ فى الحالة الثانيـــة اذ استطاع خوارزم شاه أن يأخذ المبادأة بيده ويحصن حدوده ويطيل أمد دولته فترة من الزمن ازاء هؤلاء الذين لا يتورعون عن « اكل الميتة والكلاب والخنازير » والذين هم « أشبه شيء بالوحش والسباع » (ص ٥٤٤) ولعل خوارزم شاه من الملوك القلائل الذين خرجوا على العرف الدولي اذ قتـــل رسول جنكيز خان وأمر بالجماعة الذين جاءوا معه فحلقت لحاهم وارسلوا الى سيدهم على هذه الهيئة نكاية واستخفافاً • ثم هاجم خوارزم شاه التتـــار فى عقر دارهم وهدم بيوتهم وسبى ذراريهم وكانوا بعيـــدين عن مقرهم فى غزوة فى اتجاه آخر ولكن انتقام التتار منهم فيما بعـــد كان فظيعاً ويصـــنف المؤلف الحـــوادث حسب السنوات : ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٧ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٤٣ هـ وينتهى أمر خوارزم شاه الى الهرب الى الهند بحراً ومن ثم يصاب بالجنون « فقد تغير عقله مما اعتراه من خوف التتار أو لأمـــر سلطه الله تعالى عليه فكان يهذى بالتتار بكرة وعشية وكل وقت وكل ساعـــة ويقول هو ذا هم خرجوا من هذا الباب قد هجموا من هذه الدرجة ويرعب ويحول لونه ويختل كلامه وحركاته » وكان يلهج بعبارة : « قره تتركلدى » يكررها وتفسيرها التتر السود قد جاؤا ، وفى التتر صنف سود يشبهـــون الزنوج لهم سيوف عريضة جداً على غير صورة هذه السيوف يأكلون لحوم الناس ، ومع انه أخذ فيما بعد الى قلعة من قلاع الهند الحصينة الشاهقـــة « تلك التى لا يعلوها الغيم ابداً وانمـــا تمطـــر السحب من تحتهـــا » (١) فان ذلك لم يجده نفعاً اذ صرح قائلا : « ان التتر سوف يطلبونى ويقدمون

(١) هذا على نحو ما نجد فى بيرختسكادن حيث مقـــر هتلر الذى لا يرقى اليه النسر على مقربة من مدينة ميونخ بالمانيا •

الى ههنا ، ولو شاءوا لوضعوا سروج خيلهم واحداً على واحد تحت القلعة فبلغت الى ذروتها وصعدوا عليها فأخذونى قبضاً باليد » (ص ٥٤٨) فعلم الناس اذ ذاك ان عقله قد اختل ، فسأله ملك الهند عما يريد فى هذه الحال فأجاب « أريد أن تحملنى فى البحر المعروف ببحر المعبر الى كرمان ، فحمله فى نفر يسير من مماليكه الى كرمان ، ثم خرج فيها الى اطراف بلاد فارس فمات هناك فى قرية من قرى فارس ، واخفي موته لئلا يقصده التتر وتطلب جثته . ومكث الناس بعد ذلك سبع سنوات ينتظرون عودته الى أن ايقنوا انه قد هلك .

ويزدحم الفصل بخاطر الحصار والقتال والضرب بالسكاكين الذى كان على ما يظهر نوعا مألوفا من انواع القتال فى ذلك العهد .

ولم تكن هجمات التتار وبالا على البلاد الاسلامية فحسب بل على روسيا ايضا فقد ذكر المؤلف والحديث عن اللاجئين الذين يمموا وجوههم شطر روسيا فقال : « وبعضهم لحقوا ببلاد الروس ، وأقام التتار فى بلاد قنجاق ... ثم سارت طائفة منهم الى بلاد الروس وهى بلاد كثيرة عظيمة واهلها نصارى وذلك فى سنة عشرين وستمائة ، فاجتمع الروس وقنجاق عن منعهم عن البلاد ، فلما قاربهم التتار وعرفوا اجتماعهم رجعوا القهقرى ايهاماً للروس ان ذلك عن خوف وحذر فجدوا فى اتباعهم ، ولم يزل التتار راجعين واولئك يقفون آثارهم اثنى عشر يوما ثم رجعت التتار على الروس وقنجاق فأثخنوا فيهم قتلا ، واسروا ، ولم يسلم منهم الا القليل ، ومن سلم نزل فى المراكب وخرج فى البحر الى الساحل الشامى وغرق بعض المراكب » (ص ٥٥١) فيظهر أن الدم السلافى الروسى قد تغلغل بهذه الصورة فى السواحل اللبنانية منذ القرن الثالث عشر للميلاد على بعض

الاحتمالات حسب ما يذكر ابن ابى الحديد .

ثم يستأنف الكلام ليسرد قصة زحف التتار على بلخ ومرو ونيسابور وطوس « فنهبوها وقتلوا اهلها واخربوا المشهد الذى بـــه علي بن موسى الرضا (ع) والرشيد هرون بن المهـدى » (ص ٥٥١) وساروا الى هـراة وطالقان .

غير أن التتار تلقوا درساً قاسياً من الافغان ثم حصل الانشقاق والخيانة فى صفوفهم فعادوا وانتقموا منهم (ص ٥٥٢) واحتلوا عاصمتهم غـزنه ومات جنكيز خان بعد رجوعه الى تركستان وتولى الامر بعـده ولده قاآن وادى اختلاف الحنفية والشافعية واصفهان الى دخول التتر فيها شريطة أن يقتلوا الحنفية ويعفوا عن الشافعية ولكن النتيجـة كانت ابادة الفريقين على ايدى التتر بلا تمييز فقد اعملوا السيف بلا رحمة « وسبوا النساء وشـقوا بطون الحبالى ونهبوا الاموال وصادروا الاغنياء ثم اضرموا النار فأحرقـوا اصبهان حتى صارت تلولا من الرماد » (ص ٥٥٣) .

ويأتى الآن دور العراق وسوريا والاناضول فى هذه الفاجعة التى قلما شهد لها التاريخ نظيراً وذلك سنة ٦٣٤ هـ ، ويدخل فى حيـز هجماتهم اربيل وحلب وانطاكية وقيسارية وسيواس .. واخيراً وليس آخـراً ... بغـداد !

وقد حاصر التتار اربيل عدة مرات واستطاعوا اخيراً بطريق الغـدر ان يزحفوا عليها ويلحقوا بها الاضرار فأرسل الخليفة المستنصر بالله جيشا فلما ساروا الى تكريت تراجع التتار عن اربيل بعد أن تركوها ـ كما يقول ابن ابى الحديد ـ كجوف الحمار وعادوا الى تبريز ... ولكن بقيت سراياهـم

مستمرة فى غاراتها حتى انتهت الى حلب ، ومن المدن التى فتحوها « قيسارية » و « سيواس » وقد فعلوا فى الاولى أفاعيل منكرة من القتل والنهب والتحريق » ، الا انهم ارتأوا المهادنة والموادعة على جملة من المال يرسلها اليهم صاحب الروم ... واستطاعوا أن يضبطوا انفسهم ويتملكوا اعصابهم الى سنة ٦٤٣ هـ اذ قتل أحد أمراء بغداد وهو سليمان بن برجم شحنة لهم فهب عشرة آلاف تترى من تبريز بقيادة جغتاى الصغير قاصدين بغداد فأخرج المستعصم بالله قوة من جيشه الى ظاهر اسوار بغداد بقيادة شرف الدين الشرابى ، وتقابل الفريقان واظهر جيش الخليفة ثباتاً فائقا فلما القى الليل بجرانه تقهقر التاتار عائدين وانقذت مدينة بغداد من اول هجوم للبرابرة ، ذلك لان الخلاف بين الوزير مؤيد الدين محمد بن احمد العلقمى والخليفة العباسي المستعصم بالله لم يكن قد دب بعد .

ويبدو أن المؤلف انتهى من كتابه قبل هجوم التاتار المفجع الذى افضى الى سقوط الدولة العباسية بدليل قوله (ص ٥٥٥) :-

« ... ولو حدث على بغداد منهم حادثة كما جرى على غيرها من البلاد لانقرضت ملة الاسلام ولم يبق لها باقية ، والى أن بلغنا من هذا الشرح الى هذا الموضع لم يذعر العراق منهم ذاعر بعد تلك النوبة التى قدمنا ذكرها » .

وقد تصفحنا الجزئين الباقيين من الشرح فلم نجد فيهما اى ذكر لهجمات التتر على بغداد مما يدل على أن الكتاب ختم سنة ٦٤٣ هـ أو بعدها بقليل ، وتوفي المؤلف سنة ٦٥٦ هـ قبل هجوم التاتار الاخير فلم تتح له الفرصة لتعديل هذه الفقرة من كتابه .

ولا يقل فصل « حرب صاحب الزنج »(١) عن فصل هجمات التاتار على البلاد الاسلامية متعة وفائدة هو فصل أطول من فصل « التاتار » بكثير وسابق عليه مباشرة فكأن الموضوعين متلازمان •

ولقد ذكرنا فى بداية بحثنا هذا أن شرح ابن ابى الحديد يضم اجزاءً من كتب لم يبق لها أثر ، وهو من هذه الناحيـــة اشبه بمتحف لمخطوطات ممزقة قديمة ، فمن تلك مثلا : « كتاب صفين » لابن ديزيل وهو غـــير « كتاب صفين » لنصر بن مزاحم المنقرى ، وكتاب التاج لابن الراوندى ، وكتاب العباسية للجاحظ والموقفيات للزبير بن بكّار، وكتاب السقيفة لاحمد بن عبد العزيز الجوهرى وكتاب وقعة الجمل لابى مخنف و «كتاب الغارات » لابن هلال الثقفي وكتاب « الجمع بين الغريبين » للهروي(٢) والجـــراح لقدامه بن جعفر •

ويلوح أن ما تبقى من « كتاب الغـــارات » فى مضامير شرح ابن ابى الحديد اكثر من غيره من المصادر البائدة •

ولكثرة المصادر المتوفرة ايام ابن ابى الحديد ـ قبـل كارثة التاتار ـ نجد فى كتابه معلومات لا تتهيأ لنا فى كتب اخرى ، ففيما نقله من « كتـاب

---

(١) ج ١ ص ٤٨٨ ـ ٥٠٤٠

(٢) كتاب ابرز ما فيه انه ملىء بالاراجيز التى قيلت فى الوقعة وعلى لسان المبارزين فيها •

(٣) ج ١ ص ٩٦ وهناك كتب اخرى ضاق مجال المتن عن ذكرها من مثل كتاب امالى القاسم بن يسار الانبارى وكتاب صفين للواقدى وكتاب صفين للمدائنى وكتاب الخوارج للمدائنى وكتاب الاوائل لابى هلال العسكرى وكتاب المعرفة للحسن بن علي الحلوانى وكتاب الامثال للمدائنى الخ ...

الغارات » وجه جديد لحديث البراءة على غير الوجه المذكور فى « نهج البلاغة » ، قال : « خطب علي عليه السلام على منبر الكوفة فقال : سيعرض عليكم سبّي وستذبحون عليه ، فان عرض عليكم سبّي فسبوني ، وان عرض عليكم البراءة مني فاني على دين محمد (ص) ولم يقل فلا تبرؤا منى . (١)

ويروي استناداً الى المصادر الصحيحة التى كانت بحوزته « انه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء ولا يخاطبه أحد وكان ذلك ارهاصاً لرسالته (ع) فحكم تلك السنين العشر حكم ايام رسالته (ص) ومعنى ذلك تقليص ايام الجاهلية عشر سنوات اخرى وادخال يوم ميلاد الامام علي فى العهد الاسلامى لا الجاهلي الوثني .

والكتاب من أفضل المراجع لدراسة موضوع « الخوارج » (٣) ولا يكاد يوازيه فى الافضلية غير الكامل للمبّرد الذى هو من بعض مصادره وفيه يستعرض زعماء الخوارج واولي البأس منهم ، من امثال نجدة بن عويمر الحنفي ونافع بن الأزرق وقطري بن الفجاءة ، وجملة من رسائل احتجاجهم وتبريرهم اكفار القعدة وقتل الاطفال واستحلال الامانة من المخالفين ، ويعرض لذكر حروبهم فيذكر حرب دولاب المشهورة التى قتل فيها نافع بن الازرق ولم يكن فيها غالب ولا مغلوب .

ولعل أعظم من أوقع بهم الوقائع ونكل بهم هو المهلب بن أبى صفرة وكان على ما يظهر عارفاً لا بفنون القتال فحسب بل بعلم النفس ايضا فكلماته

---

(١) ابن ابى الحديد ١/٤٨٧ .
(٢) نفسه ١/٤٩١ .
(٣) ج ١ ص ٢٣١ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها .

التالية لاصحابه تدلك على ما كان له من طويل باع فى هـــذا المضمار : « احذروا ان تكادوا كما تكيدون ، ولا تقولوا هزمناهم وغلبناهم ، والقوم خائفون وجلون ، فان الضرورة تفتح باب الحيلة » (١/٥٠٧) وكان خطيبا بليغا وفقيها الا انه كان يتأول الاحاديث النبوية ، ويخترعها فى بعض الاحيان لتقوية صفوفه وتوهين صفوف عـــدوه • ويشهد الفصل كله على ان المهلب كان بطلا فها هو قد « نجم فى مائة وقد انغمس كماه فى الدم وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المغفر محشوة قزاً وقد تمزقت وان حشوها ليتطاير وهو يلهث وذلك فى وقت الظهر ، فلم يزل يحاربهم حتى أتى الليل » (٥٠٩)•• وكان ابن المغيرة لا يقل عنه بطولة فكان « اذا نظر الى الرماح قد تشاجرت فى وجهه نكس على قربوس السرج وحمل من تحتها فيردها بسيفه وأثر فى اصحابها فتحوميت الميمنة من اجله وكان اشبه ما يكون الحرب استعاراً أشد ما يكون تبسماً فكان المهلب يقول ما شهد حرباً قط الا رأيت البشرى فى وجهه » اهـ • (ص ٥١٠) •

وليس من شك فى أن ابن ابى الحديد قد اعتمد فى بحثه عن الخوارج على الكامل للمبرد كما ذكرنا(١) وعلى كتـــاب الاغانى للاصفهانى • (٢)

وكان الحجاج كثير الاستعجال على المهلب فى حرب الازارقة والمهلب يتأنى ويتروى ويتدبر أمره • لذلك فقد حببه رسول الحجاج بقوله : «قل له انما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه لا لمن يعرفه ، فان كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن ادبرها كما أرى فاذا أمكنتني فرصة انتهزتها ، وان لم

---

(١) راجع ابن ابى الحديد : ١/٥٣٩ •

(٢) راجع ابن ابى الحديد : ج ١ ص ٥١٧ و٥١٨ •

تمكنني توقفت ، فأنا ادبر ذلك بما يصلحه وان اردت أن أعمل برأيك وأنا حاضر وأنت غائب ، فان كان صواباً فلك وان كان خطأ فعلي فابعث من رأيت مكاني » .

وقام كعب الاشقرى الى المهلب فانشده بحضرة رسول الحجاج [من الكامل] .

ان ابن يوسف غره من امركم خفض المقام بجانب الامصار
... فدع الحروب لشيبها وشبابها وعليك كل غريرة معطار (١)

وفى ثنايا هذا الفصل وغيره من الفصول تبهرك اللغة العربية بقدرتها على الأداء عن ادق المعانى واطرفها فمن ذلك وصف «الجزل» أحد الابطال الذين قارعوا الخوارج ـ الفرسان العرب اذ يقول : « يا ابن عم ، انك تسير الى فرسان العرب ، وابناء الحرب ، واحلاس الخيل ، والله لكأنما خلقوا من ضلوعها ، ثم ربّوا على ظهورها ... »(٢) ومن التعابير الوصفية الجميلة قوله : « فما شعروا الا والرماح فى اكتافهم تكبهم لوجوههم ، وفيه كذلك بعض التعابير التزمها الدكتور طه حسين فى كتاباته من نحو : « وقاتل فاحسن القتال » (١/٥٥٤) .

ويبدو ان الحجاج كان اذا ما خرج الى معركة اصطحب معه بزيه وهيئته غير واحد من مواليه على غرار ما فعل فى حربه مع شبيب الحروري .. اذ تشبه به مولى ... فى هيئته وزيه ، فحمل عليه شبيب فضربه بالعمود فقتله ويقال انه لما سقط قال : « اخ » بالخاء المعجمة فقال شبيب : قاتل الله

---

(١) نفسه : ١/٥٣٨ ـ ٥٣٩ .
(٢) ١/٥٥٢ .

ابن ام الحجاج اتقى الموت بالعبيد (١/٥٥٩) .

وانتهت المعركة ... وخرج منها شبيب متعبا « وتبعته خيل الحجاج وغشيه النعاس فجعل يخفق برأسه والخيل تطلبه . قال اصغر الخارجى كنت معه ذلك اليوم فقلت : يا أمير المؤمنين التفت فانظر من خلفك ، فالتفت غير مكترث وجعل يخفق برأسه قال ودنوا منا فقلت يا أمير المؤمنين ، قد دنا القوم منك فالتفت والله ثانية غير مكترث بهم وجعل يخفق برأسه ، وبعث الحجاج خيلا تركض وتقول يذهب فى حرق الله ، فتركوه وانصرفوا عنه » . ١/٥٦٠

وانتهت حياة هذا البطل غرقا . يروى القصة فردة بن لقيط الخارجى فيقول :

« فلما انتهينا الى الجسر قال شبيب اعبروا معاشر المسلمين ... فعبرنا امامه وتخلف فى آخرنا واقبل يعبر الجسر وتحته حصان جموح وبين يديه فرس انثى ماذيانه فنزا حصانه عليها وهو على الجسر فاضطربت الماذيانه وزل حافر فرس شبيب عن حرف السفينة فسقط فى الماء فسمعناه يقول لما سقط : « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » واغتمس فى الماء ، ثم ارتفع فقال : « ذلك تقدير العزيز العليم » ثم اغتمس فى الماء فلم يرتفع ! » (١/ت) .

وينسب ابن المبرد صاحب الكامل الى مذهب الخوارج لاكثاره من التحدث عنهم فى كتابه وظهور تحزبه اليهم . غير انه لم يكن كذلك باعتقادنا ولو صح هذا القول لجاز على ابن أبى الحديد كذلك فهو لا يترك فرصة فى شرحه لنهج البلاغة الا وتحدث فيها عنهم ، ولا يخطىء المرء مواطن تمجيده لابطالهم وان هو فى الحقيقة الا ذكر لواقع ما كانوا عليه .

وينهج ابن ابى الحديد نهجا روائيا تصويريا فى كتاباته مما يجعلها

ممتعة غاية الامتاع فهذه صورة جثة عبيد الله بن عمر بن الخطاب .. وقاتله: « رجل متوسد برجل قتيل قد ركز رمحه فى عينه وربط فرسه برجله » (٦٨١/١) ... ولما ضرب فسطاط زياد بن خصفة بقى طنب من الاطناب لم يجدوا له وتدا فشدوه برجل عبيد الله بن عمر ، كان ناحية فجروه حتى ربطوا الطنب برجله واقبلت امرأته حتى وقفتا عليه فبكتا عليه وصاحتا فخرج زياد بن خصفة فقيل له هذه بحرية ابنة هانىء بن قبيصة الشيبانى ابنة عمك ، فقال لها : « ما حاجتك يا ابنة اخى » قالت : « تدفع زوجى الىّ » فقال : « نعم خذيه » فجيء ببغل فحملته عليه فذكروا ان يديه ورجليه خطتا بالارض عن ظهر البغل » اهـ . (٦٧٢/١) .

وتنتشر فى ثنايا « الشرح » نقاط لغوية ممتعة بينها ما يهم الباحثين فى علم الاموات فمن ذلك ما ورد فى الجزء الاول (ص ٦٤٧) نحكيه هنا بنصه :

« قال وطرحت عك حجرا بين أيديهم وقالوا : لا نفر حتى يفر هذا « الحكر » بالكاف ، وعك تقلب الجيم كافا » .

وتجد دوما نصيحة المحاربين تتكرر بين آن وآخر يذكرها الامام فى غير خطبة وهى : « عضوا على النواجذ فانه ابنى للسيوف عن الهام » وهذه العبارة من كلامه فى بعض أيام صفين (٦٣٨/١) والظاهر انهم كانوا يعتقدون ان السيف لا يؤثر فى الجمجمة كل التأثير فيما اذا شد المحارب اضراسه فقوى بذلك عضلات واعصاب هامته .

وواضح من بعض نصوص ابن ابى الحديد ان الامام علي سبق معاوية فى تحكيم القرآن بينهما . واليك النص :

« ثم ان عليا عليه السلام دعا اصحابه الى ان يذهب واحد منهم

بمصحف كان فى يده الى اهل الشام فقال : من يذهب اليهم فيدعوهم الى ما فى هذا المصحف فسكنت الناس واقبـــل فتى اسمه سعيد فقال : « انا صاحبه » فاعاد القول ثانية ، فسكت الناس وتقدم الفتى فقال : «انا صاحبه فسلمه اليه فقبضه بيده ، ثم اتاهم فانشدهم الله ودعاهم الى ما فيه فقتلوه » .

ويظهر ان اهل الشام اقتبسوا هذه الفكرة فيما بعـــد عندما وجدوا انفسهم على شفا هزيمة منكرة ، والا فالامام علي صاحب فكرة تحكيم القرآن منذ البداية والنص الذى اوردناه واضح وصريح لا يقبل التأويل .

ومن مناظر حروب « نهج البلاغة » منظر رجـــل تقدم محاولا قتل الامام علي فى موقعة صفين وهو « احمر مولى بنى امية وكان شجاعا ، وقال لعلي (ع) ورب الكعبة قتلنى الله ان لم اقتلك فاقبل نحوه فخرج اليه كيسان مولى علي (ع) فاختلفا ضربتين فقتله احمر وخالط عليا ليضربه بالسيف ، وينتهزه علي فتقع يده فى جيب درعه فجذبه عن فرسه فحمله على عاتقه ، فوالله لكأنى انظر الى رجلي احمر تختلفان على عنق علي ثم ضرب بـــه الارض فكسر منكبه وعضديه وشد ابنا علي حسين ومحمد عليه فضرباه بأسيفهما حتى برد فكأنى انظر الى علي قائما وشبلاه يضربان الرجل حتى اذا أتيا عليه اقبلا على ابيهما والحسن قائم معه فقال له علي : يا بنى ما منعك ان تفعل كما فعل اخواك ؟ فقال : كفيانى يا أمير المؤمنين ! » ا هـ .

ومن مشاهد البطولة الخالدة انه لما صرع زياد بن النضر « دفع يزيد بن قيس رايته لاهل الميمنة فقال تحتها حتى صرع » (١/٦٥٦) .

ولا ندرى نوع الصفيحة التى كان يحملها الاشتر فى بعض ايـــام صفين اذ وصفت بانها « يمانية اذا طأطأها خلت فيها ماء ينصب ، واذا رفعها يكاد يغشى البصر شعاعها وهو يضرب الناس بها قدما » (١/٦٥٦) .

ويؤسفنا ان نرى مشاهد من الانتهازية المقيتة حتى فى هذه الحروب المقدسة فمن ذلك ما فكرت فيه « خثعم » بادىء بدء اذ انقسمت فريقين : فريق مع علي وفريق مع معاوية حتى اذا ما انتصر احد الفريقين انضم الفريق المخذول وحصل على المغانم المرجوة ولكن امرهم اضطرب فساء فألهم وخبت نارهم ولحقهم البوار .

وحروب الامام علي ضد خصومه فيها روعة لا تقل عن روعة حروب الشاهنامة للفردوسى ، وقد حارب فى جند معاوية نفر من الاروام اذ ورد فى تفاصيل حرب صفين ... « فتعرض له رومي من دونه لمعاوية فضرب قدم ابى شداد فقطعها وضرب ابو شداد ذلك الرومي فقتله » (١/٦٥٨)

والكاتب مولع بذكر لوازم من نمط : « كأنه غراب مقنع فى الحديد » « وضرب فرسه حتى اقامه على اطراف سنابكه » (١/٦٧٦) « ولكأنى والله انظر اليه فأراه ... » الخ ...

ويبدو أن ابن ابى الحديد تعمد فى ان يجعل كتابه مرجعا للملاحم الدامية فى تاريخ الاسلام فمن معركة الجمل الى صفين وغارات الخوارج الى ثورة الزنج وغزوات التاتار المفجعة المؤلمة ، وقد تفصل بصورة خاصة فى ثورة الزنج (جـ ٢ ص ٤٨٨ - ٥٤٠) ولا أعتقد أن هناك مرجعا أوفى وادق من كتاب ابن ابى الحديد فى هذا الموضوع وهو يبدأ به من سنة ٢٤٩ هـ يوم كان صاحب الزنج علي بن محمد معلما للصبيان فى سامراء ينظم القصائد ليمدح بها الكتاب والوزراء فعن له فى تلك السنة ان يرحل الى البحرين ويزعم انه على ابن محمل بن الفضل بن الحسن بن عبيدالله بن العباس بن علي بن أبى طالب ويدعو الناس « بهجر » الى طاعته وبعد مجازر مؤسفة وفتن ينتقل الى الاحساء ... وأخيرا يشخص الى البصرة

وذلك فى سنة ٢٥٤هـ • وقد أحضر معه حريرة كان أمر بابتياعها ليتخذها لواء فكتب فيها بالحمرة : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ••• الآية » (٢/٤٩٢) ولم يكن فى جيشه بادىء بدء غير ثلاثة أسياف سيفه وسيف على بن أبان وسيف محمد بن سلم ، ولكنه لم يلبث أن اجتمع حوله ستة آلاف زنجى من الذين يكسحون السباخ •

وكان يضرب أعناق اسراه ويحمل الرؤوس على بغال ، وفى احدى الوقعات « جمع الرؤوس وملأ بها سفناً ••• وأطلقها فوافت البصرة فوقفت فى مشرعة تعرف بمشرعة القياد فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس فيأخذ راس كل رجل أولياؤه » (٢/٤٩٦) •

واستولى ذات مرة على أربعة وعشرين مركبا من المراكب البحرية « كانت اجتمعت تريد البصرة وانتهى الى أصحابها خبر الزنج وقطعهم السبل وفيها أموال عظيمة للتجار فاجتمعت آراؤهم على أن شدوا المراكب بعضها الى بعض حتى صارت كالجزيرة يتصل أولها بآخرها وسارت فى دجلة ••• فلم يلبثوا أن حووها وقتلوا مقاتلتها وسبوا ما فيها من الرقيق وغنموا منها أموالا لا تحصى ولا يعرف قدرها » وانتهب الزنج المراكب ثلاثة أيام وتركوا ما بقى فيها بعد ذلك لزعيمهم (٢/٤٩٧) •

واستولى على الابله وعبادان والاهواز وحاز ما كان فيها من مـــال وسلاح ••• وتألب الرأى العام يومذاك ضد الزنج « حتى لقد كانت المرأة تجد الزنجى مستترا فى الادغال فتقبض عليه» وتسلمه الى السلطات المسؤولة (٢/٤٩٨) •

ثم كانت الوقعة العظمى بالبصرة سنة ٢٧٧هـ فوضع صاحب الزنج

السيف بأهلها حتى لقد قال شاهد عيان لهذه المجزرة البربرية « فو الله انى لاسمع تشهدهم وضجيجهم وهم يقتلون ، وقد ارتفعت أصواتهم بالتشهيد ، حتى سمعت « بالطغاوة » وهو على بعد من الموضع الذى كانوا فيه » (٢/٥٠٠) وقد هلك فى هذه الوقعة ثلثمائة الف شخص .

وكان صاحب الزنج يزعم اتيان الخوارق والمعجزات فمن ذلك قوله انه سجد ذات مرة وجعل يدعو فى سجوده فرفع الى البصرة فرآها ورأى اصحابها يقاتلون فيها ورأى بين السماء والارض رجلا واقفاً فى صورة جعفر المغلوب ... وهو قائم قد خفض يده اليسرى ورفع اليمنى يريد قلب البصرة فعلم ـ على زعمه ـ ان الملائكة تولت اخرابها دون أصحابه (٢/٥٠٠) .

واكبر الظن ان صاحب الزنج لم يكن علويا على ما كان يزعم وانما كان خارجيا على رأى الازارقة لان اصحابه كانوا يخطبون له على المنابر ويترحمون بعد ذلك على أبى بكر وعمر ولا يذكرون عثمان ولا علياً ويلعنون أبا موسى الاشعرى وعمر بن العاص ومعاوية .

وقد ذكرت العجائب والغرائب عن فترة استفحال أمر الزنج فى جنوب العراق نذكر طرفا منها هنا للعبرة ليس غير فقد ذكر انه « استخفى من سلم من اهل البصرة فى آبار الدور فكانوا يظهرون ليلا فيطلبون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفار والسنابير فافنوها ، حتى لم يقدروا على شىء منها ، فصاروا اذا مات الواحد منهم أكلوه ، فكان يراعى بعضهم موت بعض، ومن قدر على صاحبه قتله وأكله ، وعدموا مع ذلك الماء ، وذكر عن امرأة منهم انها حضرت امرأة قد احتضرت ، وعندها اختها وقد احتوشوها ينظرون ان تموت فيأكلون لحمها ، قالت المرأة : فما ماتت حسناً حتى

ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه ، ولقد حضرت أختها ونحن على شريعة عيسى بن حرب ، وهى تبكى ومعها رأس الميت فقال لها قائل : « ويحك ما لك تبكين ؟ » فقالت : « اجتمع هؤلاء على اختى فما تركوها تموت حسناً حتى قطعوها فظلمونى فلـم يعطونى من لحمها شيئا الا الـرأس » واذا هى تبكى شاكية من ظلمهم لها فى اختها ا هـ . » (٢/٥٠١)

وبيعت حفيدات الحسن والحسين والعباس من اشراف قريش بالثمن البخس الذى لا يتجاوز الدرهمين والثلاثة ليطأهن الزنوج وليصبحن وصيفات للزنجيات وامسى عند الزنجى الواحد العشرون والثلاثون من نساء قريش الحرائر . وقـد طلبت واحـدة منهن الى صاحب الزنج ـ وهـو العلوى المزعوم ـ ان يتوسط فيعتقها من مولاها الزنجى فأجاب : « هو مولاك وهو أولى بك ! » (٢/٥٠٢)

ويعجب المرء كيف أن القلة النسبية للزنج استطاعت أن تتغلب عـلى الكثرة الكاثرة من جيوش الخليفة وبقيادة بطل من أبطال العباسيين وهو أبو احمد طلحة بن المتوكل « وكان منصورا مؤيدا عارفا بالحرب وقيادة الجيوش وهو الذى أخذ بغداد للمعتز وكسر جيوش المستعين وخلعه من الخلافة ، ولم يكن لبنى العباس فى هذا الباب مثله ومثل ابنه أبى العباس » (٢/٥٠٢) وكان صاحب الزنج نفسه يرتاع لمجرد ذكر اسمه .

وكانت بداية الكارثة مقتل مفلح بسهم غرب وكان هو المرشح بعد أبى احمد اذا ما اصيب ثم قتل من جنود العباسيين خلق كثير واقبل الزنج على زعيمهم على بن محمد قابضين على رؤوس قتلاهم بأسنانهم وألقوها بين يديه فكثرت الجماجم يومئذ حتى عليت بشكل تل واخذ الزنوج يقتسمون لحوم القتلى ويتهادونها فيما بينهم .

وانتهز صاحب الزنج فرصة مقتل مفلح فكذب كذبة أراد ان يثبت بها كراماته فقال : سقط بين يدى سهم من السماء فاتانى به ، راح ، خادمى فدفعه الىّ فرميت به فاصاب مفلحا فقتله (٢/٥٠٤)

وزعم انه عرضت عليه النبوة فرفضها فلما سئل فى ذلك اجاب ان لها أعباء أخاف أن لا أستطيع حملها (٢/٥٠٦) وزعم انه سمع تراتيل الملائكة ليلة قبضت روح الجبائى وكانت ليلة ذات برق ورعود وأخذه العجب والتيه عندما سمع بحدوث حريق فى جيش أبى أحمد فقال انه هو الذى دعا الله أن ينزل على العدو صاعقة فأحدثت الحريق فى جيش الخليفة (٢/٥٠٧)

والثابت ان من أسباب صمود الزنج احتماؤهم بالادغال والآجام وامتناعهم بالقصب والحلافى وكان جنود الخليفة يلجأون احيانا الى اضرام النار فيها ليخرج الزنج منها هاربين (٢/٥٠٨) .

وبنى صاحب الزنج بنهر ابى الخصيب مدينة عظيمة سماها المختارة لا تقل عن بغداد وسامراء روعة ان لم تزد عليها (٢/٥١٠) وكان من المتوقع ان تنقرض دولة بنى العباس فى هذه الفترة اى حوالى سنة ٢٦٧ هـ اذ عظم الخطب واشتد الكرب وتلاحقت الازمات آخذة بعضها برقاب بعض (٢/٥١٠) لولا ان تدارك الامر بابى احمد وابنه ابى العباس من جديد ومع ان الزنج استهانوا بالاخير لحداثة سنه فان الله قد منحه واصحابه اكتافهم ليقتلهم ويطاردهم . ويبدو ان اكثر المعارك كانت تدور رحاها فى الانهار والاهوار فهى فى الغالب معارك نهرية لا مثيل لها الا فى القليل من معارك التاريخ الاسلامى . وكانوا يحاربون احيانا بالشذاة وبسميريات ذات اربعين مجذافا (٢/٥١٣) .

وثمة منظر من مناظر معارك فتنة الزنج وهو رمى السهام التى علقت بها كتب الامان لمن يستسلم الى جيش أبى أحمد هذا الجيش المؤلف عـلى ما يذكر الطبرى من الاتراك والخزر والروم والديالمه والطبرية والمغاربـة والزنج (من أولئك الذين طلبوا الامان واستسلموا) والفراعنة (وأعتقد أن المقصود بهم هنا الاقباط) والعجم والاكراد (٢/٥٢٢) ٠

وكان من قادة الناجم محمد بن على (صاحب الزنج) صندل الزنجى « وكان صندل هذا مما ذكر يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهن ويقلبهن تقليب الاماء فان امتنعت منهن امرأة لطم وجهها ودفعهـا الى بعض علوج الزنج ٠٠٠ ثم يخرجها بعد ذلك الى سوق الرقيق فيبيعها باوكس الاثمان (٢/٥٢٤) ٠٠٠ ويشاء العلي القدير ان يوقع هـذا القائد الوحش الظالم بأيدى قواد الخليفة فكتفوه وجعلوه هدفا لسهام الرماة الى أن مات ٠٠٠ فغدا جسده لكثرة ما رمى بالسهام كالقنفذ !

وعلق ابو العباس رؤوس الزنج فى الشذا وصلب الاسارى احياء ومروا بمدينة الزنج ليخيفوهم فزعم الناجم ان الرؤوس السود المرفوعة تماثيل غير حقيقيـة فما كان من أبى احمد اذ ذاك الا ان أمر برمى تلك الرؤوس بالمجانيق ليتأكد اصحابها من حقيقتها ٠٠٠ فما ان تيقنوا من ذلك حتى علا صراخهم وعويلهم ! (٢/٥٢٤ – ٥٢٥) ٠

وانتهت الثورة بمقتل علي بن محمد صاحب الزنج وذلك سنة ٢٧٠هـ ولم يصدق ابو احمد الخبر حين وافاه به البشير الى ان جاءه بشير ثان ومعه كفه وثالث معه رأسه فسجد لله امتنانا وشكرا ٠

وجيء بالرأس الى بغداد مع خمسة من خاصة الناجم مكبلين بالاصفاد

وهم انكلاني بن صاحب الزنج وعلي بن ابان المهلبي وسليمان بن جامع وابراهيم بن جعفر الهمذاني ونادر الاسود وبقوا في السجن حتى سنة ٢٧٢ هـ الى ان تحركت الزنج في واسط وأخذت تهتف : « انكلاني يا منصور » فحينذاك أمر الموفق بارسال رؤوسهم فاخذوا وذبحوا على البالوعة كما تذبح الشياه • واما قرطاس الذي جرح أبا احمد بسهمه وسخر منه فقد ادخل فيه سيخ من حديد اخرج من فيه وشوي على النار •

وقد أثرت وقائع الزنج في الأدب العربي تأثيرا لا ينكر ومن شاء فليراجع دواوين ذلك العصر ولا سيما ديواني البحتري وابن الرومي ليجد مصداق ذلك (٢/٥٤٠) •

ويلوح لنا ان شخصية الموفق أبي احمد كانت شخصية هائلة غطت على شخصية اخيه المعتمد وانه في الحقيقة كان الخليفة الفعلي ونولاد لما استمرت السلالة العباسية حتى منتصف القرن الثالث عشر « وبحق ما سمي المنصور الثاني » ـ كما يقول ابن ابي الحديد ـ ويوم حاول المعتمد ان يلحق بابن طولون وهو في احرج ساعات مناجزته للزنج وفي فراش المرض لجرح اصابه كان الموفق هو الذي امر بالقاء القبض على الخليفة واتباعه واعادتهم الى سامراء بمعونة عامله على الموصل والجزيرة •

ويظهر ان الاوباش في بغداد لم يرضهم مقتل صاحب الزنج الذي عاث في الارض فسادا فعندما دخل المعتضد برأسه الى بغداد في جيش عظيم لم ير له مثيل واخترق الاسواق هتف قوم من بعض دروب باب الطاق (رحم الله معاوية !) « وزاد حتى علت اصوات العامة بذلك » فتغيرت هيئة المعتضد ابي العباس وأمر بجمع النفاطين ليحرقوا تلك المنطقة التي تعالت

منها الهتافات لولا ان تدخل بعض خاصته فقال له : « أيها الامير اطال الله بقاك ، ان هذا اليوم من اشرف أيام الاسلام فلا تفسده بجهل عامة لا خلاق لهم » .

اما ان الزنج وصلوا المداين وان الموفق استطاع ان يسكرهم بخدعة بعد ان بعث بدنان الخمر مع جيش وامره بتركها عندهم والتراجع ريثما يسكروا فيكر عليهم ويستأصل شأفتهم فهذه قصة لا اساس لها فى هـــذا المقام وقد تكون منتزعة من واقعة اخرى لا صلة لها بهذه .

وهكذا نجد بوجه عام ان ابن ابى الحديد قد جعل شرح نهج البلاغة اطارا جميلا لصورة رائعة تزدحم فيها الوقائع التاريخية والبحوث الادبية والمناقشات الفلسفية فهو بحق منجم لكنوز دفينة لا تقوم بثمن .